قصة البشرية

الناشر: المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

قصة البشرية

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

إن الحمد لله نحمـده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهـــده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهـد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

سيدى أبـــا القاسم يا رسول الله . .

صلت عليك مـلائك الرحمن
وسرى الضياء بسائر الأكوان
لمـا طلعت على الوجود مزوداً
بحمى الإلـه ورايـــة القـــرآن

صلى عليك الله يا علم الهـــدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم . . أما بعد . .

فيا حماة الإسلام وحراس العقيـــدة . .

هذا كتاب يدور موضوعه فى ظلال ثلاث آيات من كتاب الله وهى قوله جل شأنه : « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فإذا نفخ فى الصور نفخة واحـــدة » .

وقبل أن نقتحم هذا الحصن الحصين ونأوى إلى هذا الركن الركين نجد لزاماً علينا أن نبدأ القصة من أولهـــا فإن أول قصة البشرية يتمثل بعد خلـــق آدم فى ذريته التى ركبت الجارية أى سفينة نوح عليه السلام وما أدراك ما سفينة نوح؟ إنها التى حملت أجدادنا وأصولنا لكى تنموا البشرية وتنتشر فى مناكب الأرض ولتكون هذه الآيـــة تذكرة لنا بنعم الله علينا وفضله ومنه ولتحفظها الآذان واعية .

إذاً فالأمانة العلمية تقتضى منا أن نحيط بالموضـوع من أوله ونبـــدأ المسيرة من أول خطوة فيها على الطريق .

قال جل شأنه فى سورة الحاقة : « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

ثم عقيب ذلك جاء التفريع بمقدمات الساعة « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحـــدة » . وهذه سنة من سنن الله فى كتابه ينتقل بنا القرآن على جناح السرعة بل وأسرع مـــن الضوء من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة قبل أن تتمرغ النفس فى أوحال المادة وحمأة الطين المسنون إقرأ معى قوله تعالى : «أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعاً لكم ولأنعـامكم» .

عقيب ذلك ينتقل بنا القرآن من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة فيقول جل شأنه: «فإذا جاءت الطامة الكبرى، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هى المأوى، وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى » .

ويأتى هذا المشهد فى سورة أخرى وفى أسلوب آخر . .

قال جل شأنه: « الذى جعل لكم الأرض مهـداً وسلك

لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

وبينما نحن فى الدنيا نستمتع بهوائها ونباتها وأنعامها ونجومها وشمسها وقمرها يأتى التنبيه والنداء أن قفوا لتتفكروا مـــاذا بعد ؟ . . « منها خلقناكم وفيها نعيـــدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . . »

عجب أمر هذا الكتاب العزيز منذ لحظة كنا على ظهرها وخرجنا منها وخلقنا من عناصرها وسلكنا سبلها وسرنا فى مناكبها وفى أقل من لمح البصر طوتنا فى بطنها لنصير قطعة منها وهكذا أمر الدنيا ينتهى بين عشية أو ضحاها فقد شاءت حكمة الله أن يجعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور وسماهـا العاجلة لأن الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر . وسرعان ما نخرج على ظهرها بعد أن كنا قد نمنا فى بطنها فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الريـــاح وكان الله على كل شىء مقتـــدراً ، المـال

والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » .

هكذا وصف القرآن الكريم بأسلوب دقيق ومعجز حال الدنيا وشأنها وقد يظن من استمع لأول مرة مثل الحياة الدنيا يظن أن القرآن الكريم سيطيل النفس فى شأنها وسيطنب فى التعبير عنها ووصف أحداثها وأهوالها لكن القرآن طواها فى كلمات عطف بعضها على بعض بالفاء التى تفيد التعقيب بلا مهلة أو تراخ « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح» وهذا تعبير يتفجر الصدق من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه فهكذا الدنيا تطوى كطى السجل للكتب وبسرعة كما يطوى البرق معصرات الغمام ثم يأخذ القرآن الكريم بأيدينا ليضعنا أمام هذه الحقائق الثابتة التى أصبح العلم بها متحققاً حيث يقول جل شأنه: «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» وإلى عالم العرض وبسرعة « وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » . وبسرعة إلى الكتاب « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا

الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

ويوم ينغمس الإنسان فى أوحال الدنيا ويغوص فى أكدارها وكثافة مادتها فإن الوحى العلوى يصيح به أن أفق فليست هذه دارك، إن دارك هناك فاجمع لها لأنك إليها ترجع « فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلا، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم» . ثم ماذا بعد هذا ؟ . . يدرج الإنسان فى أكفان القدر « فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة » .

بعد هذا الطواف المبارك لنا عود على بدء لنبدأ القصة من أطرافها إلى منتهاها إنها قصة البشرية من أمسها إلى يومها إلى غدها إلى يوم ينادى الملك « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ». إلى أن ينادى المنادى بين الجنة والنار «يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت ».

قوله جل شأنه : « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية »

لنا مع الجارية حديث فإنها تمثل بدء خليقة الآدميين ولابد من العناية بهذا البدء فما قصة الجارية ؟ .

أما الجارية فإنها سفينة نوح وأما صاحبها فهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ — وهو أدريس — بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوس بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام .

وبين نوح وآدم عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية ابن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله أنبى كان آدم ؟ .. قال :

« نعم مكلم » . قال: فكم كان بينه وبين نوح ؟ . . قال : «عشرة قرون» .

وهذا الحديث على شرط مسلم . .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة . لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرون . وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب : أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح » . وقوله «ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » .

وقال تعالى « وقروناً بين ذلك كثيراً » .

وقال « وكم أهلكنا قبلهم من قرن » وكقوله عليه السلام

« خير القرون قرنى . . . » .

فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم . .

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لمـــا عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس فى الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد . فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول أهل الموقف يوم القيامة . .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجـــاه وأصحاب السفينة فى غير ما موضع من كتابه العزيز فى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافـات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة .

سورة الأعراف :

قال تعالى : « لقد أرسلنا نوحـــاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لاتعلمون، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون: فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين » .

سورة يونس :

قال الله تعالى: « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولاتنظرون، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين، فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

سورة هود :

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لاتعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد

آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من المـــاء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين، وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض المـــاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين، قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا

وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم، تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

سورة الأنبياء :

قال الله تعالى : « ونوحاً إذا نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم أجمعين » .

سورة المؤمنون :

قال الله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ، قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل

رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين » .

سورة الشعراء :

قال الله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال وما علمى بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين ، فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

سورة العنكبوت :

قال الله تعالى « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » .

سورة الصافات :

قال الله تعالى : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على نوح فى العالمين، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، ثم أغرقنا الآخرين » .

سورة القمر :

قال الله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر، ولقد تركناها آية فهل من مدكر، فكيف كان عذابى ونذر، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

سورة نوح :

قال الله تعالى : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون، قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً، فلم يزدهم

دعائى إلا فراراً، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إنى دعوتهم جهاراً، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً، ما لكم لاترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً، والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً، والله جعل لكم الأرض بساطاً، لتسلكوا منها سبلا فجاجاً، قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسـاراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، وقد أضلوا كثيراً ولاتزد الظالمين إلا ضلالا، مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً » .

بعد هذه المسيرة المباركة والزحف المقدس من آيات الله

البينات يجدر بنا أن نذكر مضمون هذه القصة لما لها من جليل العظة وعميق العبرة فهذا نبي مرسل يظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم تكون النتيجة «وما آمن معه إلا قليل» أى بشرية تلك التى قضى نوح فيها هذه القرون لا هذه الأعوام ثم ماذا ؟ لقد قضاها ليلا ونهاراً يدعو إلى الله : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » . ومع هذا استعمل كل أساليب الإقناع وطرق الدعوة المختلفة : « ثم إنى دعوتهم جهاراً، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » . ولم يقف الأمر عند ذلك لقد استعمل البشارة والانذار والخوف والرجاء والوعد والوعيد والترغيب والترهيب . اسمع إلى قوله تعالى يحكى عن نوح فى ترغيبه « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » .

ثم استمع معى إلى أسلوب الوعيد : « مالكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً» . ثم استمع إليه يبصر عقولهم إلى عظمة الخالق وآياته الكونية والآفاقية بعد ما بين آياته فى الأنفس وتكوين الأجنة فى بطون الأمهات طوراً بعد طور نعم : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل

القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً » إلى غير ذلك من الآيات التى تنخلع لهـا الأفئدة وتنفطر من هولهـا الأكباد جل جلالك أنت الواحد بلا عدد القائم بلا عمد الدائم بلا أمد لا يشغلك سائل ولا ينقصك نائل .

الله ربى لا أريد سـواه
هل فى الوجود حقيقة إلا هو
الشمس والبدر من أنوار حكمته
والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجـده
والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيستّرهم
والعبد ينسى وربى ليس ينساه

نعم علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر إن نوحاً مع قومه درس لكل داعية إلى الله أن يصبر على أذى العباد وليكن مع الناس كالشجر يرمونه بالحجر فيرميهم بأطيب الثمر .

لقد مضى بين نوح وآدم عشرة قرون من الزمان كانت

البشرية فيها على التوحيـــد . وكان الناس أمة واحدة يحدثنا الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى فيقول :

« ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ﷺ تفسير قوله تعالى : « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً» قال: هذه أسماء رجـــال صالحين فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئـــك وانتسخ العلم عبدت قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لوصورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ،فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأتاها بأرض الحبشة ويقال لها ماريا وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل » . . والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال :

« فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحـــه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ . . ألا ترى ما نحن فيه ومـــا بلغنا ؟ . . فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً شديداً. لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن شجرة فعصيت، نفسي نفسي . اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ . .

ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول :(ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي) .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثـــالا ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى . من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

وقال فيه وفى إبراهيم : « وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم .

قال الله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وقال تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » .

وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

ولهـــذا قال نوح لقومه « اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

وقال « ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » .

وقـــال: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون » .

وقال: « يا قوم إنى لكم نذير مبين ،أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم (قال الملأ من قومه) أى السادة الكبراء منهم « إنا لنراك فى ضلال مبين » « قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين » أى لست كما تزعمون من أنى ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العـــالمين أى الذى يقول للشىء كن فيكون « أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أى فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا: « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى

الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

تعجبوا أن يكون بشراً رسولا وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل انهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل : وهم أتباع الرسل وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق .

وقولهم : « بادى الرأى » أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى رويه ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مادحاً للصديق : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم » .

ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة سريعة من غير نظر ولا روية لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضى الله عنهم .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن

يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه قال : يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضى الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به « وما نرى لكم علينا من فضل » أى لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا . .

« بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لهـا كارهون » .

وهذا تلطف فى الخطاب معهم وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق كما قال تعالى : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » .

وقال تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وهـذا منه :

يقول لهم : « أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمـة من عنده » : أى النبوة والرسالة « فعميت عليكم أنلزمكموها » أى أنغصبكم بها ونجبركم عليها « وأنتم لهـا كارهون » أى ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه « ويا قوم

لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله » أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم لن اطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم . .

وقوله « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون » كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال «إنهم ملاقوا ربهم» أى فأخاف إن طردتهم «أفلا تذكرون ».

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك . « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك » أى بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ولا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » .

«ولا أقول للذين تزدرى أعينكم» يعنى من أتباعه «لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين» أى لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيراً فخير وإن شراً

فشر كما قالوا فى الموضع الآخر « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون، قال وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون، وما أنا بطارد المؤمنين، إن أنا إلا نذير مبين » .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » . أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل أوصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقى . وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق . ولهذا قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » . ولهذا « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » .

أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذى لا يعجزه شىء ولا يكترثه أمر بل هو الذى يقول للشىء كن فيكون « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » .

أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » . تسلية له عما كان منهم إليه .

« فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أى لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » .

وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم . فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ،ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ،وقال تعالى : « ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم » .

وقال تعالى : « قال رب إن قومى كذبون، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين » .

وقال تعالى : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر » .

وقال تعالى : « قال رب انصرنى بما كذبون » .

وقال تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديـاراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لهـا نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها وقـدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقـة على قومـه عند معاينة العـذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » .

أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به . « قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » .

أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم : « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا . وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول كما قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد بن زيـــاد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يجىء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل : هل بلغت؟ فيقول : نعم أى رب . فيقول لأمته : هل بلغكم؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبى . فيقول لنوح : من يشهد لك؟ . فيقول : محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

والوسط : العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها

ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجـــه فى زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخارى: حدثنا عبدان حدثنا عبدالله عن يونس عن الزهرى قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: « إنى لأنذركموه وما من نبى إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور .

وهذا الحديث فى الصحيحين أيضاً . .

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبى قومه انه أعور وإنه يجىء معه بمثال الجنة والنار والتى يقول عليها الجنة هى النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه ».

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة أخرى وقيل فى أربعين سنة والله أعلم .

ثم دعا نوح ربه قائلا: « رب انصرنى بما كذبون، فأوحينا

إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . أى بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها ، « فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أى أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أى إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعانيه من العـــذاب العظيم الذى قد حتمه الفعال لما يريد .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أى نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محال النار .

وأما قوله تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » .

هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . .

وقوله تعالى : « وأهلك إلا من سبق عليه القول » . .أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه (يام) الذى غرق .

« ومن آمن » أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى : « وما آمن معه إلا قليل »

هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة .

فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم .

وعن كعب الأحبار كانوا اثنتين وسبعين نفساً وقيل : كانوا عشرة وقيل : إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة (يام) الذى انخذل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل : وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق . فقد ماتت قبل الطوفان

وقيل انها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها .

قال الله تعالى : « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمدلله الذى نجانا من القوم الظالمين ،وقل رب انزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين » .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ،لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حين هاجر : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » .

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : « اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » .

أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه .

« إن ربى لغفور رحيم » أى وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » .

وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر » (والدسر يعنى المسامير) . « تجرى بأعيننا » (أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها) « جزاء لمن كان كفر »

وقال تعالى : « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . أى السفينة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

قال جماعة من المفسرين : « ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذى عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعاً وعم جميع الأرض طولها وعرضها

سهلها وحزنها وجبالهـــا وقفارها ورمالهـــا ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من المـــاء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحـــال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

وهذا الإبن هو (يام) أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه كنعان وكان كافراً عمل عملا غير صالح مخالفاً أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك ، هذا: وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب .

« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين »

أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر وغيض المـــاء أى نقص عما كان وقضى الأمر أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم وقيل بعداً للقوم الظالمين أى نودى عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى « فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا

الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين » .

وقال الله تعالى « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

وقال الله تعالى: « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » .

وقال الله تعالى: « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون، ثم أغرقنا بعد الباقين ، إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

وقال الله تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » .

وقال الله تعالى: « ثم أغرقنا الآخرين » .

وقال الله تعالى: « ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وقال الله تعالى: « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا،إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

وقد استجاب الله تعالى – وله الحمد والمنة – دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة يعنى – إلا خمسين عاماً – وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة فى البر كيف تجرى ؟ ! قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع المـــاء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها المـــاء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ المـــاء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى » .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديـــاراً .

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجـــه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال إنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق ؟ . .

فأجيب بأنه ليس من أهلك – أى الذين وعدت بنجاتهم أى إنا قلنا لك : « وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم » .

فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ثم قال تعالى « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور « بسلام منا وبركات » أى اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أى من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقباً سوى نوح عليه السلام قالى تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث .

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام .

قال الله تعالى : « إنه كان عبداً شكوراً » .

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى . .

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة
يدى ولسانى والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام :

قال ابن ماجة : باب صيام نوح عليه السلام . .

حدثنا سهل بن أبي سهل حدثنا سعيد بن أبي مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » .

وقد قال الطبرانى : « حدثنا أبو الزنباغ روح بن فرج حدثنا عمر بن خالد الحرانى حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة

عن يزيد بن ربـــاح أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمـرو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« صام نوح الـــدهر إلا يوم الفطـــر ويـــوم الأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر » .

ذكر حجه عليه السلام : —

قال الحافظ أبو يعلى عن ابن عباس قال : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى وادى عسفان قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ . . قال هذا وادى عسفان قال : لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران — أى نوق فتية — لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق .

ذكر وصيته لولده عليه السلام : —

قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من أهل البـــادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ، أو قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ورفع كل راع ابن راع . قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجامع جبته وقال :

« ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ! . . ثم قال : إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك وصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأراضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ولو أن السماوات السبع والأراضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله ، وبسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبهـا يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر . قال : قلت — أو قيل — يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر ؟ . . أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ . . قال : لا . . قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ . . قال : لا . قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ . . قال : لا . قال : هو أن يكون لاحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ . . قال : لا قلت — أو قيل — يا رسول الله فما الكبر ؟ . .

قال : « سفه الحق وغمط الناس . . »

وهكذا استعرضنا قصة نوح عليه السلام ووقفنا على جوانب العبرة فيها . ونطرح الآن سؤالا لمـاذا كل ما حدث ؟ .

ولمـاذا كانت العقوبة هكذا ؟ ويجيب القرآن الكريم في صرامة وحزم وصراحة ووضوح وإيجـاز وجيز فيقول

تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى » .

وهذه الآية الكريمة على إيجازها تعطى دروساً للأمم التى تريد أن تحيا وأهم هذه الدروس أن الظلم مرتعه وخيم وأن عاقبة الظالمين هلاك وتدمير .

يحدثنا العلامة ابن حجر الهيثمى فى كتابه الزواجر فيقول قال الله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .

وقال الله تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقال الله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

والركون إلى الشىء السكون والميل إليه بالمحبة ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : لا تميلوا إليهم كل الميل فى المحبة ولين الكلام والمودة .

وقال السدى وابن زيد لا تداهنوهم .

وقال عكرمة : لا تطيعوهم وتودوهم .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

والظاهر أن ذلك كله مراد من الآية .

وقال تعالى : « أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أى أشباههم وأتباعهم .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الظلم ظلمات يوم القيـــامة » . وأخرج مسلم وغيره : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم . . »

وروى مسلم وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبـادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم « إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

والطبرانى : « لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم وتستسقوا فلا تسقوا وتستنصروا فلا تنصروا » .

والطبرانى بسند رجاله ثقات : « صنفان من أمتى لن تنالهمـــا شفاعتى إمام ظلوم غشوم وكل غال مارق » .

وأحمد بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله » .

ويقول : « والذى نفسى بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما » .

والشيخان وغيرهما : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

وأبو يعلى واللفظ له وأحمد والطبرانى بسند حسن : « الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات يوم القيامة : اتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد يجىء يوم القيامة بالحسنات يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقوم يقول : يا رب ظلمنى عبدك مظلمة فيقول : أمحوا من حسناته فما يزال كذلك حتى ما يبقى من حسنة من الذنوب — أى من أجلها — وأن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم ليحتطبوا فلم يلبثوا أن احتطبوا فأعظموا النار وطبخوا ما أرادوا وكذلك الذنوب .

والبخارى « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينـــار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخـــذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

ومسلم وغيره : « أتدرون من المفلس ؟ . . قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مـــال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

والشيخان وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قـــال لمعاذ لمـــا بعثه إلى اليمن : « اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينهـــا وبين الله حجاب » .

وأحمد والترمذى وابن ماجه وابنا خزيمة وحبان فى صحيحيهما : « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر والإمام العـادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمـام وتفتـــح

لهـا أبواب السماء ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

والبزار : « ثلاثة حق على الله أنه لا يرد لهم دعوة الصائم حتى يفطر والمظلوم حتى ينتصر والمسافر حتى يرجع » .

والترمذى وحسنه : ثلاث دعوات لا شك فى إجابتهن : دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على الولد .

والطبرانى بسند صحيح : « ثلاث تستجاب دعوتهم الوالد والمسافر والمظلوم » .

وأحمد بسند حسن : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه » .

ومسلم : « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » .

والطبرانى بسند له شواهد كثيرة : « دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : « دعوة المظلوم ودعوة المرء لأخيه بظهر الغيب » .

والطبرانى فى الصغير والأوسط : « يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى » .

ومسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟ . . قال : « كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها وإن كانت من كافر . وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه . وساعة يتفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد أو مرمة أو لذة فى غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمامه مقبلا على شأنه حافظاً للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » . قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ . . قال : « كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف هو — أو ثم هو — يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب عجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن

إليها عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل » قلت يا رسول الله أوصنى . . قال : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله » .

قلت يا رسول الله زدنى قال : « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله تعالى فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء » . قلت يا رسول الله زدنى . قال : «إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجـــه » . قلت يا رسول الله زدنى . قال : « عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى » قلت يا رسول الله زدنى قال : « أحب المساكين وجالسهم » . قلت يا رسول الله زدنى قـــال : « انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك » .

قلت يا رسول الله زدنى . قال : « قل الحق وإن كان مراً » . قلت يا رسول الله زدنى . قال : « ليردك عن الناس ما تعلمه عن نفسك . ولا تجـــد عليهم فيما تأتى وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك وتجد عليهم فيما تأتى ثم ضرب بيده على صدرى وقال : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق » .

وأبو داود : « ما من مسلم يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى

موطن يحب فيه نصرته ، وما من مرىء مسلم ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » .

وأبو الشيخ وابن حبان : « أمر بعبد من عبـــاد الله تعالى يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلـــدتموني ؟ . .

قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره .

وأبو الشيخ أيضاً : قال الله عز وجل وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل » .

والبخاري والترمـــذي : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجـــل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ . . قال : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره » .

وأبو داود : « من حمى مؤمناً من منافق أراه قال : بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم » .

وأحمد بإسنادين أحدهما صحيح : « من بدى جفا ومن تبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان أفتتن وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً » .

وفى الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة : « عاذك الله من إمارة السفهاء . قال وما إمارة السفهاء ؟ . . قال أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهدي ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى يا كعب بن عجرة : الصيام جنة والصدقة تطفىء الخطيئة والصلاة قربان أو قال برهان .

يا كعب بن عجرة الناس غاديـــان فمبتاع نفسه فمعتقها أو بائع نفسه فموبقها » .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه حدث فى السماء أمر فقال : ألا إنه ستكون بعد أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس

منى ولا أنا منه ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه » .

وابنا ماجه وحبان فى صحيحيهما : أن علقمة بن وقاص مر برجل له شرف من أهل المدينة فقال له إن لك حرمة وحقاً وإنى رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء فتتكلم عندهم وإنى سمعت بلال بن الحارث صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة أنظر ويحك ماذا تقول وما تكلم به فرب كلام قد منعنيه ما سمعت من بلال بن الحارث .

واعلم أن من يعتاد الدخول على الظلمة قد يحتج بأن قصده نصرة مظلوم أو مساعدة ضعيف أو رد ظلامة أو التسبب فى معروف وجوابه أنه متى تناول من مطعمهم أو شاركهم فى مقاصدهم أو فى شىء من أموالهم المحرمة أو داهنهم فى منكر فهذا لا يحتاج النظر فى سوء حاله إلى دليل لأن كل ذى بصيرة يشهد أنه ضال عن سواء السبيل وأنه عبد بظنه وهواه فهو ممن أضله الله وأرداه فهو من الأخسرين أعمالا

الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ومن الذين يزعمون أنهم مصلحون « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

ومتى تنزه عن ذلك كله فهو محل اشتباه ولحاله ميزان يقضى بكماله تارة ونقصه أخرى فمتى رأى أنه كمكره فى دخوله عليهم ويود أنه لو كفى بغيره وانتصر المظلوم بسواه ولا يتبجح بصحبتهم فلا يجرى فى فلتات لسانه قلت للسلطان مثلا ولاانتصر بى فلان ونحوه ولو قدم السلطان عليه أحداً وقربه واعتقد ءوقام بما كان قائماً به لما شق عليه بل يجد له انشراحاً إذ أجاره الله تعالى من هذه الفتنة العظيمة فهو صحيح القصد مأجور مثاب الثواب الجليل ومتى لم توجد فيه جميع هذه الخصال فهو فاسد النية هالك إذ قصده طلب المنزلة والتميز على الأقران .

ولنتمم هذا المبحث بذكر أحاديث وآثار أخرى ذكرها بعضهم وعهدة أكثرها عليه كحديث :

« إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة » .

وحديث : « من ظلم شبراً من أرض طوقه إلله من سبع أراضين يوم القيامة » .

وفى بعض الكتب يقول الله تعالى : « أشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى » .

وما أحسن قول بعضهم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً
فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقول آخر :

إذا ما الظلوم استوطأ الأرض مركباً
ولج غلواً فى قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الزمان فإنه
سيبدى له ما لم يكن فى حسابه

وقال بعض السلف :

لا تظلمن الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء

وقال أبو هريرة رضى الله عنه :

إن الحبارى لتموت هولا فى وكرها من ظلم الظالم

وقيل مكتوب فى التوراة :

« ينادى مناد من وراء الجسر — يعنى الصراط — يا معشر

الجبابرة الطغاة ويا معشر المترفين الأشقياء إن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : « لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا تخبرونى بأعجب ما رأيتم فى أرض الحبشة ؟ . . فقال فتية وكان منهم : بلى يا رسول الله بينما نحن يوماً جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت المرأة على ركبتيها وانكسرت قلتها فلما قامت التفتت ثم قالت سوف تعلم يا غرار إذا وضع الله الكرسى فجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون سوف تعلم ما أمرى وأمرك عنده غداً قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم ؟ . .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه عليهم فى الدنيا وإلا ثوى بهم فى الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ولا ينصفهم من نفسه ولا يدفع الظلم عنهم وزعيم قوم يطيعونه ولا يسوى بين القوى والضعيف ويتكلم

بالهوى ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله ولا يعلمهم أمر دينهم ورجل استأجر أجيراً فاستعمله ولم يوفه أجره ورجل ظلم أمرأة فى صداقها » .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : إن الله تعالى لما خلق الخلق واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى الله وقالوا يا رب مع من أنت ؟ . . قال : مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه قال بنى جبار من الجبابرة قصراً وشيده فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه شيئاً تأوى إليه فركب الجبار يوماً وطاف حول القصر فرأى بناءها فقال لمن هذا ؟ . . فقيل لامرأة فقيرة تأوى إليه فأمر بهدمه فهدم فجاءت العجوز فرأته مهدوماً فقالت من هدمه ؟ فقيل لها الملك رآه فهدمه فرفعت العجوز رأسها إلى السماء وقالت : يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت ؟ . . قال فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه فقلبه . .

وقيل : لما حبس بعض البرامكة وولده قال :
يا أبت بعد العز صرنا فى القيد والحبس فقال : يا بنى دعوة

مظلوم سرت بليل غفلنا عنها ولم يغفل الله عز وجل عنها .

وكان يزيد بن حكيم يقول : ما هبت أحداً قط هيبتى رجلا ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله يقول لى حسبى الله . الله بينى وبينك .

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى اللطمة فما فوقها « ولا يظلم ربك أحداً » .

قلنا يا رسول الله كيف وإنما نأتى حفاة عراة غرلا بهما ؟ . . قال بالحسنات والسيئات جزاء وفاقاً « ولا يظلم ربك أحداً » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة ومما ذكر أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه

فتولى الملك بعده فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتنى فى يوم كذا ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب فقال له المعلم : أعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب علمت أنك تنال الملك بعد أبيك فأردت أن أذيقك طعم الضرب وألم الظلم حتى لا تظلم أحداً بعد . فقال له : جزاك الله خيراً ثم أمر له بجائزة وصرفه » .

ومن الظلم المكس وأكل مال اليتيم والمماطلة بحق عليه مع قدرته على وفائه لخبر الصحيحين : « مطل الغنى ظلم » وفى رواية « لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته » . أى شكايته وتعزيره بالحبس والضرب .

ومن الظلم ظلم المرأة فى نحو صداق أو نفقة أو كسوة وهو داخل فى لى الواجد .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينادى به على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه قال فتفرح المرأة أن يكون لها حق على ابنها أو أخيها أو زوجها . ثم قرأ « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . قال فيغفر الله من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً فينصب العبد للناس ثم يقول الله عز وجل لأصحاب الحقوق إئتوا

إلى حقوقكم قال : فيقول العبد يا رب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم حقوقهم ؟ . . فيقول الله للملائكته خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر طلبته فإن كان عبداً ولياً لله وفضل له مثقال ذرة ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها وإن كان عبداً شقياً ولم يفضل له شيء فتقول الملائكة ربنا فنيت حسناته وبقى طالبون . فيقول الله عز وجل خذوا من سيئاتهم فأضيفوا إلى سيئاته ثم صكوا به صكاً إلى النار » .

ويؤيد ذلك الخبر : « أتدرون من المفلس فذكر صلى الله عليه وسلم أن المفلس من أمته من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هـذا فيأخذ هذا من حسناته وهـذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخـذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

ومن الظلم أيضاً عدم إيفاء الأجير حقه .

قال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر . ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره » .

ومنه أن يظلم يهودياً أو نصرانياً بنحو أخـذ ماله تعدياً لقوله صلى الله عليه وسلم : « من ظـلم ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة » .

وأن يقتطع حق غيره بيمين فاجرة لقوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين : من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقـد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . قيل يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً قال وإن كان قضيباً من أراك .

وروى أنه لا أكره إلى العبد يوم القيامة من أن يرى من يعرفه خشية أن يطالبه بمظلمة ظلمه بها فى الدنيا .

كما قال صلى الله عليه وسلم : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل أن لايكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار .

وروى عبد الله بن أبى الدنيا بسنده إلى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها

ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تعنت لزوجها فى الدنيا ويشهد على الرجـــل يداه ورجلاه بما كان يولى زوجته من خير أو شر ثم يدعى بالرجل وخدمه مثل ذلك فما يؤخذ منهم دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات الظالم تدفع إلى المظلوم وسيئات المظلوم تحمل على الظالم ثم يؤتى بالجبارين بمقاطع من حديد فيقال سوقوهم إلى النار » .

وكان شريح القاضى يقول : « سيعلم الظالمون حق من انتقصوا إن الظالم لينتظر العقـــاب والمظلوم ينتظر النصر والثواب . وروى : إذا أراد الله بعبد خيراً سلط عليه من ظلمه .

دخل طاووس اليمانى على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق يوم الأذان . قال هشام وما يوم الأذان ؟ . . قـــال : قوله تعالى : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنـة الله على الظالمين » . فصعـق هشام . فقـال طاووس : هـــذا ذل الصفة فكيف المعاينة ؟ . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعان ظالماً سلط عليه » .

وقال سعيد بن المسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لأن لا تحبط أعمالكم الصالحة .

وقال مكحول الدمشقى : ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلماً فما فوق ذلك إلا حضر معهم فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم .

وجاء خياط إلى سفيان الثورى رحمه الله تعالى فقال : إنى أخيط ثياب السلطان أفترانى من أعوان الظلمة ؟ . . فقال له سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيعك الإبرة والخيوط .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول من يدخل النار يوم القيامة السواطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدى الظلمة » .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام أن من ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم .

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمر بعبد من عباد الله يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه ناراً

فلما ارتفع عنه وأفاق قال علام جلدتمونى ؟ . . قيـــل إنك صليت بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره فهذا حال من لم ينصر المظلوم مع قـــدرته على نصره فكيف حـــال الظالم ؟ . » . قال بعضهم : رأيت فى المنام رجلا ممن كان يخدم الظلمة والمكاسين بعد موته وهو فى حالة قبيحة فقلت له ما حالك ؟ . . قال : شر حال . فقلت له إلى أين صرت ؟ . . فقال : إلى عذاب الله . . قلت فما حال الظلمة عند ربهم . قال : شر حال أما سمعت قول الله عز وجل « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقال بعضهم : رأيت رجلا مقطوع اليد من الكتف وهو ينادى : من رآنى فلا يظلمن أحداً فتقـــدمت إليه وقلت له يا أخى ما قصتك ؟ . . فقال يا أخى قصتى عجيبة وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة فرأيت يوماً صياداً قد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى فجئت إليه فقلت : أعطنى هذه السمكة . فقال : لا أعطيكها أنا آخذ بثمنها قوتاً لعيالى فضربته وأخذتها منه قهراً ومضيت بها . قال فبينما أنا ماش بها حاملها إذ عضت على إبهامى عضة قوية فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدى ضربت على إبهامى وآلمتنى ألمـــا شديداً حتى لم أنم من شدة الوجع وورمت يدى فلما أصبحت أتيت الطبيب

وشكوت إليه الألم فقال : هذه لا بد من قطعها وإلا تلفت يدك كلها فقطعت إبهامى ثم ضربت يدى فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم فقيل لى أقطع كفك فقطعتها وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى ألماً شديداً ولم أطق النوم ولا القرار وجعلت أستغيث من شدة الألم فقيل لى أقطعها من المرفق فقطعتها فانتشر الألم إلى العضد وضربت على عضدى أشد من الأول فقطعتها . فقال لى بعض الناس ما سبب ألمك فذكرت قصة السمكة . فقيل لى كنت رجعت من أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة فاستحللت منه واسترضيته ولا قطعت يدك فاذهب الآن إليه واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك قال فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته فوقعت على رجليه أقبلهما وأبكى وقلت يا سيدى سألتك بالله إلا ماعفوت عنى . فقال لى : ومن أنت ؟ . . فقلت أنا الذى أخذت منك السمكة غصباً وذكرت له ما جرى وأريته يدى فبكى حين رآها ثم قال يا أخى قد حللتك منها لما قد رأيت بك من هذا البلاء . .

فقلت له يا سيدى قد أراك الله قدرته فى وأنا تائب إلى الله عز وجل عما كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب ولا أكون من أعوانهم ما دمت حياً إن

إن شـــاء الله تعـــالى وبالله التـــوفيق .

وبعـــد . . . فقد عشنا هذا الكتاب فى ظلال ثلاث آيات من كتاب الله تعالى هى قوله جل شأنه « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » .

وتبين لنا بعد ذلك عاقبة الظالمين من قوم نوح وعقبنا عليهم بالظالمين من بعدهم وضربنا لذلك الأمثال . كما ذكرنا حشداً كبيراً من كلام مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكيف بين لنا خطر الظلم على الأمم وأنه إيذان بتدميرها « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد صدق الله جل شأنه إذ يقول فى شأن الظالمين « ولا تحسبن الله غافلا عمل يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم

فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » .

هذا ونسأل الله أن ينجينا من الظلم ويباعد بيننا وبين الظالمين إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

المؤلف : عبد الحميد كشك

حينما بدأنا نشر هذه السلسلة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا عن ذكر تسلسل حياته .. لأنه غنى عن التعريف .. ولكن استجابة لرسائل القراء التى تصلنامن مختلف أنحاء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف فى سطور :

- عبد الحميد عبد العزيز كشك .
- من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣ .

التحق بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، حيث اتم حفظه للقرآن وهو فى الثانية عشرة من عمره .

- التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الاسكندرية الدينى .
- وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، أنعم الله عليه بفقد البصر ، فواصل الطريق فى طلب العلم بجد ومثابرة ، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج ، ولكنه حمد الله على قدره ، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة .
- التحق بمعهد القاهرة الثانوى ، وكان الأول على فرقته دائما ، وحصل على مجموع مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى ، وفى الشهادة الثانوية حصل على مجموع ٥ر٩٨٪ .
- التحق بكلية أصول الدين ،حيث حصل على الشهادة العالمية ، وكان ترتيبه الأول ، ومثل الأزهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١ .
- حصل على شهادة العالمية مع تخصص التدريس العالى .
- عمل اماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف .
- خطيب وامام مسجد عين الحياة (الملك سابقا) منذ عام ١٩٦٤ والآن يوجه دعوته على منبر مسجد عين الحيـــاة بشارع مصر والسودان بالقاهرة .

- مراسلات الشيخ كشك على العنوان التالى :

الشيخ عبد الحميد كشك

٣٩ فتحى موسى ــ سكة الوايلى ــ أرض الجمعية ــ حدائق القبة ــ القاهرة

النـــاشر

رقم الايداع ٣٠٧٤ - ١٩٨٥

الترقيم الدولى ٦ - ٠٤٢ - ١٣٦ - ٧٧